الفصل الرابع

صـادف العام الـذي أصبحْتُ فيه فـي سنّ الثالثـة عشرة بداية قـرن جديد، وبـدأت أُلاحـظ أنّ هنالك تغييـرات تطالنـي، تدريجيّاً. لقد كنـت أنمو. وكان أكثر ما يميِّز هـذه المرحلة، الإقلال من رحلات الصيـد بصورة ملحوظة، والمواظبة على التسكّع في المركز التجاري، ومخالطة الناس، والالتقاء بأشخاص جُدد.

كان جيلبرت يرافقني عادة، إضافة إلى جيفري وآخرين. كنّا نذهب هناك ونلعب **الباوو** باستمـرار. **والباوو** هي لعبة تحظى بشعبية كبيـرة في مالاوي وغرب إفريقية، وتُلعَب بِكُرات البلّـور (البنانير) أو الحبـوب التي توضع في تجاويف في لوح خشبـي طويل. وكان لكلّ لاعب صفّـان يحتوي كلّ منهما على ثمانيـة تجاويف. وتهدف اللعبة إلـى الاستيلاء على محتويات الصف الأمامي للمنافس، ومنعه من التحرّك.

تتطلّـب **الباوو** كثيـراً من التخطيط والتفكيـر السريع. أعترف أنّني كنـت ماهراً بهذه اللعبـة، وكنت أهزم الصبية الآخرين في المركز التجـاري، الأمر الذي أَعُدُّه انتقاماً بسيطاً لوضعي على دكّة الاحتياط في أثناء مباريات كرة القدم في الماضي. صحيح أنّني لم أحصل على **المانغولوميرا**. ولكن، كان لديَّ **الباوو**.

كلّمـا كنـت أهم بالذهاب إلـى المركز التجاري لرؤيـة أصدقائـي، كان كهامبا ينهض محـاوِلاً اللحاق بي. لقد كان يحنّ إلى رحلاتنا معاً، لكنّني كنت أمنعه من مرافقتي؛ فالناس سيقلِّلـون مـن شأنـي إذا رأوني أمشـي برفقة كلب. وفي إحـدى المرّات، تبعنـي كهامبا إلى

المركـز التجاري مـن دون أن أشعر بذلك. وحين وصلت شجرة التين قرب صالون الحلاقة، حيـث كنّا نلعب **الباوو**، أشار إليّ أحدهم وأخذ يضحك، ثمّ بدأ الحضور يسخرون منّي بقول عبارات لاذعة، من مثل: **لِمَ تحتاج إلى هذا الكلب خلفك؟ أنا لا أرى أيّ أرانب أو طيور في الجوار. هل تصيد في السوق؟**.

بدأ الصبية الآخرون يضحكون أيضاً. لقد كان موقفاً محرِجاً. بعد كلّ ما حصل، قطعت علـى نفسي عهـداً أن أكون أكثر حزماً معه، فكلّما حاول اللحاق بـي كنت أُعنِّفه بشدّة. وعلى الرغـم من شتمي إيّاه، وصراخي عليه مـراراً، فإنه لم يكن يطعني. وكان عليَّ – بعد المشي أمتاراً عدّة– التقاط حجر صغير وقذفه على رأسه، ثمّ توبيخه قائلاً: **والآن، دعني وشأني**.

وبعد تكرار هذا الأمر مرّات عدّة، تمكّن أخيراً من فهم الرسالة؛ فكان يأتي إلى المركز التجاري، ولكن وحده، ولاسيّما في أثناء موسم التزاوج في حزيران، حين كانت إناث الكلاب تجـوب القرى شبقة. وكان حين يراني يهرول صوبي هازّاً ذيله، لكنّني كنت دائماً أردعه قبل أن يصل، وأصرخ قائلاً: اذهب!، وأركل التراب لأخيفه قبل أن يراني أحد.

وعلاوة على ذلك، لم تعد أخبار فريق إم تي إل البدوي تستحوذ على مخيّلتي ومشاعري، مـع أنّنـي كنت أَعُدُّ البـدو أكثر من مجرّد رجـال؛ إذ كنت أتابع مبارياتهـم بوساطة المذياع وأتخيّلهـم كالعمالقة. وعندما كان فريق البدو يخسر، وبخاصة أمام فريق بيغ بوليتس، كنت أصاب بتعاسة لا أقوى معها على تناول العشاء، حتى لو قدَّمت لي والدتي الدجاج، علماً بأنّني أُحبّ الدجاج كثيراً. لقد كانت متابعتهم تمثِّل هوساً بالنسبة إليَّ. وفي أثناء مباراتهم – ذلك الموسـم– أمام فريق بيـغ بوليتس، كان قلبي يخفق بسرعة كبيرة لدرجـة أنّني شعرت بدنوّ أجلي (أعتقد أنّ ما مررت به يُسمّى نوبات قلق). قلت لنفسي: **ما هذا الذي أفعله؟ كرة القدم تضرّ كثيراً بصحتي**. لذا، توقّفت بعد ذلك عن متابعة اللعبة برمّتها.

آنـذاك، بدأت أنا وجيفـري تفكيك بعض أجهزة المذياع القديمـة والمعطّلة لرؤية ما بداخلها، محاولين فهم مبدأ عملها؛كي نتمكّن من إصلاحها.

في مالاوي ومعظم أجزاء قارة إفريقية التي تفتقر إلى الكهرباء اللازمة لتشغيل التلفاز، يُعَـدّ المذياع حلقة الوصل الوحيدة لنا بالعالَم خارج القرية. وأينما ذهبت؛ سواء في دهاليز

أعمق دغـل، أو في شوارع المدينة المزدحمة، فإنّك سترى أناساً يُنصِتون إلى أجهزة مذياع صغيـرة تُحمَل باليد. سوف تسمع موسيقا الريغـا المالاوية، أو موسيقا البلوز الأمريكية التي تبثّها محطة راديو تو من بلانتاير، أو كورس الإنشاد الإنجيلي وعظة الكنيسة في ليلونغوي.

أضـف إلى ذلك أنّه منذ انطلاق هيئة البثّ المالاوية بعد الاستقلال، أصبح المالاويون يَعُـدّون المذيـاع فرداً من العائلة. وقـد أخبرنا والدي عن الأيام الأولـى للهيئة، وعن سماعه هـو وأقرانه أغاني دولـي بارتون وكيني روجرز من أمريكا، إضافة إلى غناء روبرت فومولاني الرائع. كانت البرامج الزراعية تلقى رواجاً في تلك الحقبة، ويتذكّر والدي كيف كان الرئيس بانـدا – المُـزارِع الأول – يذكّر الجميـع بتنظيف حقولهم، وحفر الأثـلام، ونثر البذور قبل المطـر، قائلاً: إنّ فعـل ذلك يجعل المالاويين سعداء وناجحين. وكان يذكّرهم بوضع الزبل! أمّـا أنـا، فسأتذكّر دوماً كيف كنت أستمـع أيام الطفولة وما تلتها إلى عظـة الأحد التي كان يلقيها شادريك وأمي في كنيسة إفريقية الوسطى المشيخية بليلونغوي، يتبعها برنامج أفضل عشرين أغنية.

حتى أعوام قليلة خلت، ولسوء الطالع، لم يكن لدينا سوى قناتين إذاعيتين (راديو وان، وراديـو تو) حكوميتيـن، الأمر الذي تسبَّب في الحـدّ من مدى اطلاعنا علـى العالَم بصورة كبيرة.

وفـي واقع الأمر، فقـد انتابني فضول شديد ورغبة جامحة فـي معرفة ما يجري داخل هـذا الجهـاز منذ أول مرّة سمعـت فيها الصوت الصـادر منه. كنت أُحدِّق بألـواح الدارات الكهربائيـة، وأتساءل عـن وظيفة الأسلاك، وألوانها المختلفة، والمـكان الذي تؤول إليه في النهايـة. كيف يمكن لهذه الأسلاك والقطع البلاستيكية الصغيرة أن تسمح لدي جيه موجود فـي بلانتاير أن يتكلّم هنا في بيتي؟ كيف تعزف الموسيقا على موجة، في حين يلقي الواعظ خطبته على أُخرى؟ مَنْ يرتِّبها بتلك الطريقة؟ كيف توصَّل إلى هذه المعرفة الرائعة؟

لقد تعلّمنا عن طريق المحاولة والخطأ فقط أنّ مصدر الصوت هو لوح الدارة الموحّد؛ القطعة الكبرى التي تحتوي على الأسلاك والقطع اللدائنية (البلاستيكية) جميعها؛ إذ ترتبط الـدارة الموحّدة بقطع صغيرة تشبه حبات الفول. تلك هي الترانزستورات، ومهمتها التحكّم

فـي الطاقة التي تسري في المذياع وصولاً إلـى السمّاعات. لقد تعلّمت أنا وجيفري ذلك بعد فكّ أحد الترانزستورات، وملاحظة ما أفضى إليه هذا الأمر من انخفاض في درجة الصوت بصـورة ملحوظـة. لم نكن نمتلـك أداة لحام جيدة. لذا، كنّا نصلِح ألـواح الدارات بتسخين سلـك غليـظ على نار المطبخ حتى يصبح لونه أحمر من شـدّة الحرارة، ثمّ نستخدمه للحم القطع المعدنية بعضها ببعض.

تعلّمنا أيضـاً كيف يلتقط المذياع الموجات المختلفة؛ سواء موجة تضمين التردّد (إف أم)، أو تضمين السعة (إيه أم)، والموجات القصيرة؛ إذ يلتقط المذياع موجة تضمين السعة عـن طريق هوائي داخلي؛ لأنّها موجـات طويلة. ولكن، في حال موجة تضمين التردّد، فيجب أن يكـون الهوائـي خارجيّاً؛ ليلتقط أصغر الموجات وأضيقها مـن الهواء. أضف إلى ذلك أنّ اصطدام موجة تضمين التردّد بشيء طويل؛ كبناء أو شجرة، يحجبها، كما هو الحال بالنسبة إلى الضوء.

وسبب تعلّمنا كلّ شيء عن طريق التجريب، فقد ضحّينا بعدد كبير من أجهزة المذياع الجيـدة للحصول على المعرفة. أعتقد أنّنـا حصلنا على مذياع من كلّ عمّ، أو عمّة، أو جار، وقـد تكدّسـت كلّها في كومـة ضخمة وُضِعت في صنـدوق بغرفة جيفري. ومـا إن تعلّمنا من أخطائنا حتى بدأ الناس يُحضرون لنا أجهزتهم المعطّلة طالبين منّا إصلاحها، وسرعان ما أصبح لدينا مشروع صغير.

اتخذنا من غرفة نوم جيفري الصغيرة التي تقع مباشرة خلف بيت والدته مكاناً للعمل؛ إذ كنّـا ننتظر الزبائـن هناك، في حين اكتسـت الأرضية تحتنا بكومة مـن الأسلاك وألواح الـدارات والمحرّكات، والهياكل المكسورة، فضلاً على قطع معدنية وبلاستيكية غير معروفة افترشت الطريق. وفيما يأتي مثال على تعاملنا مع الزبائن:

دخـل أحـد الأشخاص قائلاً: **أودي أودي**. لقد كان رجلاً عجـوزاً من القرية المجاورة، يتأبّط مذياعه كدجاجة.

قلت: **تفضّل**.

قال: **سمعت أنّ أحداً هنا يُصلح أجهزة المذياع**.

قلت: هذا صحيح؛ أنا وزميلي السيد جيفري. ما المشكلة؟

قال: لكنّكما مجرّد طفلين. كيف هذا؟

قلت: لا تشكِّك في قدراتنا. أخبرني، ما المشكلة؟

قال: لا أستطيع التقاط موجة المحطة. إنّه لا يبث.

قلت: دعني أُلقي نظرة... مممم... نعم، أعتقد أنّ بوسعنا إصلاحه. تعال خذه قبل وقت العشاء.

قال: بل قبل السادسة! اليوم السبت، وأريد الاستماع إلى المسرحيات.

قلت: حسناً.

كنّا في حاجة إلى مصدر طاقة لتحديد العطل؛ ما يعني وجوب استخدام البطاريات، خاصة أنّنا نفتقد إلى أيّ مصدر للكهرباء. لكنّ ثمن البطاريات مرتفع، ولم أكن أكسب أنا وجيفري من التصليح ما يكفي لشرائها. لذا، كنّا نمشي إلى المركز التجاري، ونبحث عن البطاريات المستعملة المُلقاة في سلال المهملات، ثمّ نجمع منها خمساً أو ستّاً، إضافة إلى عبوات مشروب شيك شيك الكرتونية. كنّا نجد فائدة في تلك العبوات النتنة حتى بعد تلك السنين كلّها.

بدايةً، كنّا نفحص البطاريات؛ للتحقّق من وجود بقايا طاقة فيها؛ وذلك بوصل طرفي سلك مربوط بمصباح (لمبة) بالقطبين السالب والموجب. وكلّما كان المصباح متوهجاً أكثر، كانت البطارية أقوى. بعدئذٍ، كنّا نعيد تشكيل علب الكرتون، ثمّ نلفّها على هيئة أنبوب، ثمّ نضع البطاريات داخله، مع التأكّد من وضع القطبين السالب والموجب في الاتجاه نفسه، ثمّ نصل سلكين بالقطبين. بعدئذٍ نوصلهما بموضع البطاريات في الجهاز. كانت تلك المجموعة من البطاريات تحوي عادة طاقة كافية لتشغيل المذياع.

كان نجاح العملية يعتمد – حتماً– على نوع البطاريات، ودرجة استعمالها فيما مضى. ولما كانت أجهزة المذياع المحمولة تحتاج إلى قليل من الطاقة، فإنّها تُستنفد حتى آخر

رمـق، في حيت تتطلّـب أجهزة تشغيل الشرائط توافر طاقة كبيـرة، لدرجة أنّ البطاريات لا تقـوى على تشغيلها في مرحلة ما، على الرغم مـن بقاء قليل من الطاقة فيها. يُذكَر أنّ أسوأ أنواع البطاريات كان ذلك الذي يحمل اسم تايغر هيدز (الأكثر انتشاراً مع الأسف) المصنَّع في الصين؛ إذ كانت البطارية تُستنفَد بعد سويعات قليلة من تشغيل أيّ مشغّل. لذا، كنّا نفرح أيّمـا فرح عندما نجد البطاريات المالاوية العزيزة من نوع صَن (الشمس) التي كانت الأقوى على الإطلاق، والقادرة على تشغيل أجهزة المذياع بصورة لا مثيل لها.

سيد جيفري، نحن محظوظون لعثورنا على بطارية صَن مالاوية جيدة.

صدقت، ستمدّنا هذه بالطاقة مدّة طويلة من الوقت.

كان النـاس – في أحايين كثيرة– يقتربون منّا ونحن نصلح الأجهزة، قائلين: **انظروا إلى هؤلاء العلماء الصغار! ثابروا أيّها الفتية، ويوماً ما ستحصلون على وظيفة محترمة.**

وبمرور الأيام أصبحت مهتمّاً بكيفية عمل الأشياء، لكنّني لم آخذ الأمر على أنّه نوع من العلوم. وإضافة إلى أجهزة المذياع، فقد أصبحت مولعاً بالسيارات، ولاسيّما تلك التي تعمل بمحرّكات البنزين. وكنت أفكّر دائماً في الطريقة التي تعمل بها، وأبحث عن جواب لسؤالي: **كيـف يحـدث ذلـك؟**. حسناً، من السهل معرفة ذلك؛ ما عليـك سوى سؤال أيّ شخص يملك سيـارة. لذا، كنت أستوقف سائقي الشاحنات في السوق التجاري وأسألهم: **ما الذي يحرّك هـذه الشاحنـة؟**. لكنّ أحداً لم يكن يعرف الإجابة. كانـوا يبتسمون فقط، ويهزّون رؤوسهم. صدقاً، كيف لهم أن يقودوا الشاحنات وهم لا يعرفون مبدأ عملها؟

حتى والدي الذي ظننت أنّه يعرف كلّ شيء، قال: **يشتعل الوقود ويطلق النار... حسناً، لست متأكّداً.**

كانت مشغّلات الأقراص المدمجة قد بدأت تلقى رواجاً في المركز التجاري، وأصبحت مولعـاً بها بصورة أكبر. وكنـت أُناظر الناس وهم يُدخلون أقراصهـم اللامعة في أجهزتهم لسماع الموسيقا.

كنت أسأل: **كيف يضعون الصوت على تلكم الأشياء؟**.

وكانت إجابة معظم الاشخاص: **ومَنْ يهتم؟**.

وعلى الرغم أنّ الناس في المركز التجاري اكتفوا بالاستمتاع بتلك الأشياء من دون اكتراث لتعرّف طبيعة عملها، فإن تلك الأسئلة كانت دائماً تدور في خلدي. وإذا كانت وظيفة العالِم هي كشف ذلك الغموض، فما أريده، إذن، هو أن أُصبح عالِماً.

كنت حينها أرتاد مدرسة ويمبي الابتدائية، الواقعة على بُعْد كيلومتر واحد نزولاً في الطريق الحرجي الذي يمرّ من أمام بيت غيلبرت. كان عليَّ الخضوع لامتحان شهادة إخلاء طرف في السنة اللاحقة؛ فإن نجحت، أنتقل إلى المدرسة المتوسطة، حيث يخضع الطلاب لدروس موسّعة في العلوم، ويجرون التجارب العلمية.

أما أنا، فإن أُصبح عالِماً أفضل بكثير من العمل في الزراعة التي أصبحت – في تلك القحبة– تستنفد جزءاً كبيراً من وقتي. كان والدي لا يزال يزرع بعض التبغ لبيعه في المزاد، لكنّ محصولنا الرئيس كان – وما يزال– الذرة (تشيمانغا) التي كانت تؤمِّن الطعام لعائلتي طوال العام. يُذكَر أنّ معظم المالاويين يعتاشون على الزراعة، كما يعتمد المزارعون على أراضيهم المزروعة ذرة للبقاء. فإذا لم يكن بمقدورك جلب الطعام من أيّ مكان، فإنّ مؤونتك من الحبوب – في الأقل– كفيلة بإطعام عائلتك. حتى الناس الذين يسكنون المدينة، فقد اعتمدوا على شقيق أو ابن أخ يسكن القرية لرعاية قطعة الأرض المزروعة ذرة عوضاً عنهم. وكان الجميع في حاجة إلى ذلك في موسم الزراعة حينما تكون أسعار الحبوب مرتفعة في السوق.

تُؤكَل الذرة مع كلّ وجبة في مالاوي، حيث تقدِّمها معظم العائلات على هيئة عصيدة كالعجين، تُسمّى **سيما**. وتُصنَع **السيما** بتحريك طحين الذرة في ماء ساخن (ليس مغليّاً) حتى تصبح مكتنزة ويصعب تحريكها، ثمّ تُقسم إلى أجزاء بحجم شطيرة الهمبرغر الأمريكية. ويمكن للشخص بعدها أن يقطع جزءاً منها ويكوِّره في راحة اليد، ثمّ يغمسه في الصوص – يكون عادة فولاً أو خضراوات، من مثل: الخردل، وثفل العنب، وأوراق اليقطين، بحسب الموسم. وفي حال كانت حالة عائلتك ميسورة، فقد تحصل على لحم الغنم أو الدجاج. أمّا ما أُفضِّله أنا فهو السمك المجفّف مع الطماطم.

وبوجه عام، يعتمد الجميع في العيش على **السيما**، بدءاً بالسياسيين البدناء، وانتهاءً بالكلاب والقطط. ففي كلّ ليلة بعد العشاء، يكون كهامبا في انتظار وعاء طعامه لتناول ما لذّ وطاب. لم يكن يمضع أكله في معظم الأحيان؛ إنّما يستنشقه فقط. وكنت أسأل حينها: **كيف له أن يتمتع بهذه الطريقة؟**.

لا تُعَدّ السيما جزءاً رئيساً من غذائنا فحسب، بل تعتمد عليها أجسامنا كما تعتمد السمكة على الماء للبقاء. وفي حال وجّه أجنبي إلى مالاوي دعوة للعشاء وقدَّم له شريحة لحم وباستا، إضافة إلى كعك الشوكولاتة كتحلية، ولكن من دون سيما، فإنّه يعود إلى البيت قائلاً لأشقائه وشقيقاته: **لم يكن هنالك طعام، بعض الشرائح والباستا فقط. آمل أن أتمكّن من النوم الليلة.**

تُعَدّ زراعة **التشيمانجا** نشاطاً عائليّاً يتطلّب جهود كلّ رجل وامرأة وطفل قادر على العمل. وقد تقدِّم الفتيات الصغيرات المساعدة أحياناً؛ سواء في الزراعة، أو إزالة الأعشاب، أو الحصاد، لكنّهنّ يساعدن أمهاتهنّ غالباً في الواجبات المنزلية الكثيرة؛ كإحضار الماء، والطبخ، والتنظيف، والعناية بالصغار. وقد جرت العادة على تجاهل إسهامات المرأة في مالاوي. فعندما أصبحت في سنّ الثانية عشرة، كان لدي خمس شقيقات، وكنت أنا الولد الوحيد، ما يعني أنّ مسؤولية مساعدة والدي في الحقول تقع على كاهلي فقط.

يبدأ العمل في حزيران بتنظيف الأرض من بقايا محصول الموسم الذي حُصِد في أيار. وكان علينا جمع جريد الذرة الجاف وتكديسه في كُومٍ تُسمّى تشيكوسي، ثمّ ترتيبها في صفوف. وحالما تصبح التشيكوسي مرتّبة على نحوٍ جيد، أُضرِم النار فيها وأنتظر. وتتخذ الجنادب من هذه الأكوام بيوتاً لها، فعندما تشتعل فيها النيران، تطير مئات الجنادب هاربة، ما يجعل عملية اصطيادها سهلة، حيث أضعها في أكياس السكر، ثمّ آخذها إلى البيت كي أشويها على النار بعد تمليحها. أؤكِّد لكم أنّني قادر على تناول كمية كبيرة من السيما مع الجنادب المقرمشة. لم يكن لزاماً اصطياد الجنادب في أثناء العمل. ولكن، كما يقول المثل السائرعندنا: **عندما تذهب لرؤية البحيرة، فإنّك ترى فرس النهر أيضاً.**

أمضينا معظم شهر آب حتى أواخر شهر تشرين الثاني ونحن نحفر في التراب صفوفاً جديدة، أو ما يُسمّى الأثلام. فكنت أتناول معولي وأفصل الثلمين الموجودين مسبقاً لأصنع واحداً جديداً في المنتصف. كانت تلك طريقتنا في تدوير التربة. وبسبب أنّه موسم الجفاف، فقد كانت التربة صُلبة، وتتطلّب منّي استخدام كامل قوتي لكي أتمكّن من تفريقها، الأمر الذي أدّى إلى ظهور تقرّحات كبيرة على يديّ. ليس ذلك فقط؛ بل كانت التربة تحتوي على كتل كبيرة، الأمر الذي تطلّب سحقها بمقبض المعول، ما يجعل العملية تستغرق وقتاً أطول. وعلى الرغم من أنّ التربة الناعمة تسمح بنمو البذور من دون عوائق، فإن بعض المزارعين يتثاقلون عن فعل ذلك، ويتركون هذه الكتل على حالها؛ ما يجعل غلّتهم قليلة.

وبسبب أنّ الجو يكون حارّاً جدّاً في أثناء النهار، فقد اضطررت إلى حفر الأثلام في الصباح الباكر قبل الذهاب إلى المدرسة، ثمّ العودة مرّة أُخرى لإكمالها في المساء قبل هبوط الظلام. وفي حال كان القمر مكتملاً ومضيئاً، كنت أستيقظ في الرابعة صباحاً، قبل صياح الديك، وقبل طلوع الضوء، ثمّ أمشي باتجاه المرحاض متعثّراً وأنا حامل مشعلي، محاولاً عدم الالتفات إلى العناكب الموجودة على السقف بأرجلها البيض والسود، وأجسامها الكبيرة الشعورة، أو الصراصير التي تحرّك قرون استشعارها في الضوء، كأنّها تقول: **هذا وقت اللعب المخصّص لنا. لذا، يجب أن تكون في سريرك الآن!**. أيضاً، يمكنك في سكون الصباح أن تسمع كلّ شيء، حتى أسراب النمل الأبيض وهي تأكل الجدران، وتُصدِر صوتاً يشبه صوت شخص يمشي على العشب في الخارج. وفي أثناء عودتي إلى الداخل، كنت أسحب دلو ماء من البئر الضحلة خلف بيتنا، ثمّ أغسل وجهي (كانت تلك مياهاً غير صالحة للشرب). وفي هذه الأثناء، تكون والدتي قد استيقظت، وأعدَّت طبقاً من عصيدة الذرة تُدعى بهالا. كنت أتناول الطعام بسرعة، ثمّ أجوز الطريق نزولاً، جارّاً معولي خلفي. وكثيراً ما كان والدي ينادني قائلاً: **تأكّد أين تضرب بالمعول في أثناء الظلام. لا أريدك أن تؤذي قدمك!**.

فأردّ عليه بقولي: **حسناً يا أبتِ**.

وتُعَدّ إصابة الأقدام أو قطعها حادثاً عاديّاً في أثناء موسم التحضير والزراعة. لذا، فقد كان شائعاً مشاهدة أطفالٍ يلفّون أكياس السكر البلاستيكية أو الصحف على أقدامهم

بخيط (بوصفها نوعاً من الضمادات المؤقتة)؛ لإبعاد الذباب والتراب. وكان ذلك لا ينفع على أيّ حال؛ لأنّك مضطر إلى العودة والعمل في الحقول صباح اليوم الآتي. أمّا الجروح التي قد يصاب بها أحدهم، فكانت لا تلتئم على نحوٍ جيد دائماً، وكلّ مالاوي نشأ في القرية لديه عدد من الندوب تُثبِت ذلك.

كانت الطرق مظلمة ومليئة بالظلال حتى في حال كان القمر بدراً. لذا، كنت أمشي بحذر، حريصاً في كلّ خطوة أخطوها، ومحاوِلاً عدم تخيّل الغول وامكولو وهو يراقبني من بين الأشجار، أو أولئك الرجال الصلع الذين يطيرون فوقي بطائراتهم السحرية. وبغضّ النظر عن مكان وجودي أو سنّي، فإنّ تلك الأمور كانت تبعث في نفسي الخوف دائماً في الساعة الرابعة صباحاً. وذا صباح، كنت أمشي في الدغل، فإذ بضبع تُحفحف بين الأشجار؛ آووووو، ما أصابني بهلع كبير. لم أذكر أنّني ركضت بتلك السرعة طوال حياتي؛ لقد أطلقت ساقي للريح

تبدأ السماء تمطر عادة في الأسبوع الأول من شهر كانون الأول، ويستمر ذلك حتى نهاية شهر آذار. وكان ظهور أول علامات المطر يشير إلى ضرورة البدء بالزراعة. ويمكن تشبيه هذا الأمر بشارة الانطلاق في سباقات العدو؛ إذ يتعيّن عليك أن تكون مستعدّاً حين يهطل المطر، بحيث تتناول المعول وتتوجّه بسرعة إلى الأثلام لإحداث شقوق صغيرة في التربة؛ على أن يتبعك شخص آخر ليضع ثلاث بذور داخل كلّ منها، ثمّ يطمرها بالتراب، مع كثير من الأماني. وبذا، تكون الحقول في شهر كانون الأول غليظة موحلة، تلتصق بقدميك كالحلوى.

وبعد عدّة أيام ممطرة، تخترق الفسائلُ التربةَ لتتفتّح عليها أوراق صغيرة. وبعد ذلك بأسبوعين، إذا كان المطر كافياً، نضع أول دفعة من السماد بعناية؛ لأنّ كلّ فسيلة تحتاج إلى حُبّ ورعاية لتنمو قوية، شأنها في ذلك شأن بقية الكائنات الحية.

كان تحضير المزروعات هو عملي المفضّل. لذا، لم أكن مضطرّاً إلى انتظار أحد يعمل قُبالتي، ما أتاح لي المغادرة باكراً لشيّ الذرة، وهو أمر يمثّل لذّة نادرة في شهر كانون الأول.

وبوجه عام، يمكن للشخص أن يقتات على محصوله، بدءاً من شهر أيار، وانتهاءً بشهر أيلول. فحينئذٍ، تكون الذرة متوافرة بكميات كبيرة، وتكون الوجبات ضخمة. مثلما

يكـون فصل الشتاء في النصف الجنوبي للكرة الأرضية. كنّا في تلك الليالي الباردة، نجتمع حـول النار، ونشوي الذرة في مقـلاة مسطّحة؛ نضحك، ونروي القصص، وندندن الأغاني الجميلـة. ولكن، حين يحين موسم الزراعة في شهر كانـون الثاني، تصبح مؤونة الذرة لدى معظم العائلات شحيحة، فتُعَدّ أيّ فرصة للقاء الأقارب والأصدقاء لشيّ الذرة وليمةً في حدّ ذاتهـا. إنّ رائحتها في أثنـاء الشواء لذيذة، وتبعث السعادة في نفوس الجميع. و يُعَدّ تناول وجبات السيما في أوقات الشحّ تلك مصدرَ بهجة.

يحين وقت شراء السماد والبذور في شهر كانون الأول؛ وهي عملية مكلفة جدّاً ومرهقة للمدخـرات والجيوب. لذا، كان يحاول بعضهم توفيـر قليل من المال لشراء دجاجة أو بعض الأرز؛ لكـي يتناولـه في عيد الميلاد أو رأس السنة. ومع ذلك، فقـد كان جُلّهم يخرج خالي الوفاض بعد هذه المناسبة. وحين يطلّ شهر كانون الثاني؛ كان معظم الناس يضطرون إلى شدّ الأحزمة حتى موعد الحصاد. فالسماء دائماً تمطر في الخارج ليل نهار، حتى الطيور لا تجد ما تأكله؛ لأنّ الكائنات كلها منهمكة في النمو. إنّه وقت مليء بالحرارة والطين والانتظار.

يُطلَـق على هـذا الوقت من السنة اسم **موسم الجوع**؛ ذلك أنّ الناس في الأرياف كانوا يبذلـون أقصـى جهدهم لتهيئة الحقول، مع تنـاول كميات قليلة جدّاً مـن الطعام. لذا، كان منطقيّاً اتصاف مثل هؤلاء الأشخاص بالهزال والبطء والضعف. و تعرَّض كثير من الأطفال إلـى الموت جوعاً في بعض الأحيان. لقـد اعتدنا التعايش مع موسم الجوع، تماماً مثل صياح الديك وشروق الشمس في الصباح.

وفي حال مرّ كلّ شيء على ما يرام، فإنّ الأمطار الغزيرة في شهري كانون الأول وكانون الثانـي، تتيـح نمو الفسائل، ويتعيّـن أن تصل في هذا الوقت إلى ركبتي والـدي. بعدئذٍ، تبدأ حبّـات الـذرة الصغيرة بالتّكوّن، وتُزهِـر بعد أسابيع عدّة عناقيد مـن الشعيرات الحريرية، مـع زهرة طويلة شرّابة. ومـا إن يحلّ شهر شباط حتى يكون المحصـول غزيراً وقويّاً بحيث يطـاول صدر والدي. ومع حلول وقت الحصاد في شهر أيار، يكون المحصول قد تجاوز رأس والـدي، وبخاصة إذا تعرّض للتسميد. عنئذٍ، تُترك الذرة على سوقها حتى تجف، ثمّ تُقطَف. يلـي ذلك تخزين الحبوب في أكياس كبيرة سعتها خمسـون كيلوجراماً، ثمّ توضَع في مخزن

صغير بجانب غرفة والديّ. وفي حال كان الموسم جيداً، فقد تجاوز الأكياسُ السقفَ ويفيض محتواها في الممر.

وبخاصة تسير عملية الزراعة والحصاد عادة كلّ عام. ولكن، في شهر كانون الأول من عام 2000م، لم تسر الأمور على ما يرام؛ إذ انحبس المطر، ولم يهطل إلّا في الأسبوع الأخير من هذا الشهر. وقد مدَّت الزخاتُ الأولى الفسائلَ بالثقة لتتمكّن أخيراً من شقّ طريقها من خلال التربة. لذا، سمّد المزارعون الأرض، والأمل يحدوهم بهطل الغيث. لكنّ الأمطار التي تلت كانت غزيرة، وهطلت ليل نهار مدّة أسبوع. فضربت البلاد موجة من الفيضانات العارمة، التي جرفت البيوت والماشية، إضافة إلى الفسائل التي بدأت تنمو للتو. ولحسن الطالع، لم تصل الفيضانات إلى منطقتنا، لكنّ الأمطار جرفت السماد، وجرفت معها أيّ أمل بالحصول على محصول وفير.

وممّا خفَّف من وقع المصيبة أنّ كثيراً من المزارعين لم يتمكّنوا من شراء السماد أصلاً، حالهم كحالنا. وقد تسبَّبت سياسات الرئيس الجديد في ارتفاع سعر كيس السماد من نوع إن بي كيه (يحتوي على نيتروجين، وكبريت، وبوتاسيوم) ليصل إلى ثلاثة آلاف كواتشا. وكان ذلك يفوق قدرتنا على شرائه أساساً، فما بالك الآن وقد جرفت الأمطار الدفعة الأولى منه! يُذكَر أنّ الرئيس تحدّث بوساطة محطة راديو وان بعد الفيضان، وأقسم أن يساعد المزارعين كافة بتوزيع (طرود إعانة) تحوي كيلوجرامين من بذور الذرة، وخمسة كيلوجرامات من السماد. وقد وُزِّعت على كلّ مُزارِع محتاج في مالاوي طرود شبيهة بما وُزِّع عامي 1998م، و1999م؛ إذ كانت الأمطار جيدة في هذين العامين، وساعدت الطرود التي حوت البذور والسماد على جني محصول وفير. لكنّ ضغوط الدول المانحة تسبَّبت في حجب البرنامج عن مليون مُزارِع تقريباً. لذا، كان سماع وعد الرئيس بتوسيع دائرة المساعدات أمراً جيداً.

مرّ شهر على هذا الوعد ولم يحدث شيء. بعد ذلك، وضعت الحكومة قائمة في المركز التجاري تحوي أسماء المزارعين المستفيدين من تلك الطرود. ولم تحوِ هذه القائمة اسم والدي، إلى جانب كثيرين غيره. لكنّ الأمر لم يكن ذا أهمية؛ فالمطر كان قد توقّف حينها.

بعد الفيضان، اختفى المطر فجأة لتصاب الأرض بلعنة الجفاف. كانت الشمس تُشرِق حارقة في السماء كلّ يوم، ولا تُظهِر أيّ شفقة بالفسائل الفتية التي تمكّنت من البقاء حتى اللحظة. ومع حلول شباط، كانت المحاصيل قد ذبلت، وانحنت نحو الأرض كامرأة عجوز تكنس التراب. ولحسن الطالع، فقد أنقذتنا زخات المطر التي هطلت في شهر آذار من كارثة حقيقية، وساعدت المحاصيل على النمو قليلاً. وبحلول شهر أيار، كانت الشمس قد أحرقت نصف المحصول. أمّا تلك التي تمكّنت من الصمود، فكانت ضئيلة لا تصل إلى صدر والدي.

في ظهيرة أحد الأيام، مشيت في الحقول برفقة والدي، وشاهدنا الدمار الذي حلّ بها. كانت أوراق الذرة تشبه البصل؛ بنية هشة، تتفتّت بمجرّد لمسها. كلانا كان يفكّر في الأمر نفسه، لكنّني كنت أول مَنْ نطق: **ماذا سيحلّ بنا العام المقبل يا أبي؟**.

قال متنهداً: **لا أعرف. نحنا لسنا الوحيدين على الأقل؛ إذ يواجه الجميع الظروف ذاتها.**

كان والدي محقّاً؛ ففي بعض المناطق الأخرى، كان المحصول أقلّ من المتوقع. لكنّ المتضرِّر الأكبر من الجفاف كان القرى الصغيرة؛ لأنّها تحتوي على مَزارع صغيرة يتعيّن عليها إطعام عائلات كبيرة على مدار العام. ففي حال طرأت مشكلة صغيرة تتعلق بالمناخ، أو السماد، أو البذور، فقد يعني ذلك معاناة تلك العائلات مجاعةً طوال العام. كانت تلك السنة بداية مواسم عدّة من الجفاف.

أما مزرعتنا، فقد تمكّنّا من ملء خمسة أكياس من الحبوب، لم تغطِّ زاوية المخزن كلّها. وقبل أن أخلد إلى النوم ذات ليلة، شاهدت ضوءاً يلمع في الداخل، ووجدت والدي يقف وحيداً، وهو يحدِّق بالأكياس كأنّه يوجِّه إليها سؤالاً. وبغضّ النظر عن الإجابة، فقد كنت على وشك اكتشافها بنفسي.